مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/111
ISSN: 2437-0584/ EISSN: 2437-0584
المجلد 09 ،العدد 02 ،جوان 2024، ص - ص:320-349

تأثير الأزمات والكوارث الطبيعية على السلوكيات والذهنيات بمجتمع الغرب الإسلامي خلال القرنين (6هـ و 7هـ/ 12م /13م).

The impact of crises and natural disasters on the behaviors and mentalities of the Islamic West society During the two centuries (6-7 AH / 12-13 AD

ط.د عادل جعطوط(*)
مخبر البحوث والدراسات الاجتماعية ، جامعة 20 أوت-1955 سكيكدة، (الجزائر)،
a.djatout@univ-skikda.dz

أ.د محمّد قويسم
جامعة 20 أوت 1955 بسكيكدة، (الجزائر)،
m.kouicem@univ-skikda.dz

تاريخ الاستلام: 15 /2023/03 **تاريخ القبول:** 03 /2023/09 **تاريخ النشر:** 27 /2024/06

الملخص

تعالج هذه الدراسة؛ تأثير الأزمات والكوارث الطبيعية على السلوكيات والذهنيات بمجتمع الغرب الإسلامي، حيث سلطنا الضوء على بعض التصورات المستجدة، التي ترسخت في فكر ذلك المجتمع عبر الزمن، مشّكِلة بذلك؛ بنية ذهنية منافية للأخلاقيات والثوابت، حيث أصبح بعض أفراد ذلك المجتمع يؤمنون بالسحر والتنجيم ووصل بهم الأمر حدّ تقديس ممارسي هذه الظواهر، إضافة إلى بعض التأثيرات الأخرى كنهب الممتلكات والأموال والتي أدت بدورها إلى ظاهرة الخوف وانعدام الأمن. وبالرغم من ذلك كله فإن السواد الأعظم من المجتمع حافظ على روح التكافل والتآزر بين أغلب عناصره، خاصة على مستوى السلاطين والمتصوفة الذين عملوا على تخفيف الآلام والأوجاع من خلال مساهمتهم المادية والمعنوية.

الكلمات الدالة: الكوارث الطبيعية؛ الذهنيات؛ السلوكيات؛ السحر؛ التضامن.

Abstrac:

This study deals with the impact of crises and natural disasters on behaviors and mentalities in the society of Islamic West, as it sheds light on some emerging perceptions, which were entrenched in the thought of that society over time, thus forming a mental structure that contradicts morals and constants, as some members of that society have become believers in magic and astrology and connected them The matter is the extent of sanctifying the practitioners of these phenomena, in addition to some other effects such as the looting of property and money, which in turn led to the phenomenon of fear and insecurity. Despite all of this, the vast majority of society preserved the spirit of solidarity and synergy among most of its elements, especially at the level of sultans and sufimen who worked to alleviate pain and suffering through their

	material and moral contribution.
:Keywords	natural disasters; mentalities; behaviors; Magic; Solidarity

1 مقدمة:

تعد الأزمات والكوارث الطبيعية من أهم العوامل والمسببات التي تؤدي إلى تأخر المجتمعات وانحطاطها وتشتتها، هذا إذا لم يُحسَن التعامل معها وفق مخططات معينة، وتدابير وقائية مدروسة، تضمن وجودها وبقائها، لِما تُلحقه من بعد وقوعها من أضرار جسيمة على الصعيد الاقتصادي، والاجتماعي، والديمغرافي...الخ.

ومن هذه المجتمعات؛ نجد مجتمع الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط وبالتحديد في الفترة المدروسة، حيث تعرض إلى العديد من الأزمات والكوارث الطبيعية، التي حصدت جراء وقوعها؛ الأرواح الكثيرة والخسائر المادية الكبيرة، وراحت إلى حد التأثير في السلوكيات والذهنيات والعقليات، من ظهور أفكار مستجدة وإحياء عادات مندثرة؛ كانت موجودة قبل مجيء الإسلام، ولهذا وددنا معالجة هذه الظواهر الغريبة من خلال هذه الورقة البحثية.

فلقد عرفت بلاد الغرب الإسلامي كغيره من المجتمعات جراء هذه الأزمات والكوارث الطبيعية، سلسلة من التحولات الكبرى والانعطافات الحاسمة في مساره التاريخي، فكانت المجاعات والأوبئة والقحوط والسيول وغيرها، من أشد البلايا وقعا عليه، خاصة أنها أفرزت واقعا مريرا على الإنسان في حياته ومصادر قوته، فضلا؛ عن الحروب والنزاعات السياسية التي كانت لها دور كبير في انتشار المحن.

كما نجد إلى جانب انتشار العنف والغصب والموت أيضا، طفو نوع من الفكر الجديد، هذا الفكر الذي أصبح مرهونا بالغيبيات، مستسلما للخرافة، مصدقا بالتنجيم، وهذا نتيجة تواتر الكوارث الطبيعية وتنوعها والتي هددت وجود هذا المجتمع، وبثت الرعب والهلع واليأس بين أفراده، مما دفع بهذا الأخير إلى محاولة قراءة الطبيعة والعمل من أجل الوصول إلى الأسرار الغيبية المحيطة بها، واستكشاف طوالعها، ظنا منه أن معرفة ما سبق يؤدي به لمجابهة الواقع

والتصدي له، ولهذا؛ وبعد هذه الإستباقية القرائية تتوّلد لنا جمل من الإشكالات حول إفرازات تلك الكوارث والأزمات ومنها: إلى أي مدى أثرت هذه الأزمات والكوارث الطبيعية في ذهنية الإنسان بالغرب الإسلامي؟ ما هي أبرز الطقوس التي مارسها ذلك المجتمع لمجابهة الطبيعة؟ وهل جُرِبت طرق أخرى للتصدي لها؟.

وللإجابة على هذه التساؤلات اعتمدنا على المنهج التاريخي وبعض مقارباته من نقد وتحليل ووصف دقيق لكل مجريات ما تناوله الموضوع المقدم، محاولين جمع كل ما يتعلق بالواقع الـمُعاش في تلك الظروف القاسية.

2 تأثير الأزمات والكوارث على ذهنيات مجتمع الغرب الإسلامي:

2.1 محاولة استقراء الطبيعة والتصدي لها:

تعددت آراء سكان الغرب الإسلامي حول أسباب وقوع الأزمات والكوارث الطبيعية، فهناك فئة تراه أنه عذاب من الله وابتلاء منه عما بدر منهم من تصرفات تغضبه، فذهبوا حتى إلى مقارنة بعض من الأحداث التي اعترضتهم بتلك التي وقعت في الأزمنة الغابرة، والتي جاء ذكرها في القرآن والسنة النبوية، وخير مثال الحادثة التي ذكرها التيجاني في رحلته، وربطها بقصة قوم عاد لشدة هولها وقوة ضربها[1]، وهناك فئة أخرى من يرد تلك الأحداث الطبيعية إلى قوى خارقة وغيبية محضة، أما الرأي الأخير؛ فيرجع تلك الأزمات الكونية لظواهر الطبيعة كحركات الأفلاك والنجوم والأبراج. ويذكر القلقشندى في هذا الخصوص أن المناخ والجو يتأثر بدورة الأبراج، فاستقرار المريخ يفسده، وينتج عنه الجوع والوباء[2]، ويعتقد بعض العوام من الناس أيضا، أن في حركة الأفلاك ودورانها وطلوعها تأثيرات، هذه التأثيرات ربطتها تلك الفئة بظروف حياتها الصعبة والغير المستقرة، فترى بحدوث الاقتران؛ دليلا على وقوع بعض الأحداث المهمة كالكوارث طبيعية، وارتفاع الأسعار ورخصها، وتحكمها حتى في حركة الرياح وسكونها، وهذا ما عبر عنه الأشقر مُحَمَّد سليمان في دراسته بقوله:" ومنها النظر في حركات الأفلاك ودورانها وطلوعها وغروبها واقترانها، معتقدين؛ أن لكل نجم منها تأثيرات في كل تحركاته منفردا...وله

تأثيرات أخرى عند اقترانه بغيره في غلاء الأسعار ورخصها وهبوب الريح وسكونها، ووقوع الكوائن والحوادث، وقد ينسبون إليها مطلقا، ومن تبعات هذا الاستدلال، جاء بما يعرف الاستسقاء بالأنواء".[3]

فبناء على ما سبق؛ يمكن القول أن الساكنة في الحيز المدروس، كانت تجتهد لمعرفة ما سيكون، ظنا منها أن معرفة الأفلاك، وما يكون فيها من حركة، يُمَكِّنُهم من مواجهة الكوارث والتنبؤ بها حتى قبل وقوعها، ولهذا نجد صاحب "إرشاد القاصد إلى أنس المقاصد" مُحَمَّد ابن الأكفاني، يرسخ وجوب تعلم ذلك العلم كونه علما يستدل به قبل وقوع الكوارث الطبيعية، ومما لا شك فيه أيضا أن اعتمادهم على الفكر الغيبي، انطلق من الحاجة إلى مجابهة المجهول، كون أن الطبيعة وما تجيء به يكتنفه الغموض والسِّتر، وما تتضمنه أيضا من تهديد مصيري، وجب التعرف عليه فقال بأنه:" علم يعترف منه الاستدلال بالتشكيلات الفلكية على الحوادث السفلية."[4]

وعلم التنجيم كذلك من العلوم المحبوبة على غرار علم الأفلاك، وكان من العلوم التي شجع الخلفاء على دراستها، خاصة عند الخلفاء الموحدين، الذي كان تشجيعهم لها بالغ الحدة،[5] ومن أهم هؤلاء الحكام الخليفة أبو يعقوب المنصور (580هـ-595هـ/1184م-1198م)، الذي أسس في المسجد الجامع باشبيلية برجا ليكون مرصدا، وهو أول برج بني في أوروبا، وجعله مرصدا لرصد النجوم وحركتها، فضلا عن الأذان والإعلام بالوقت وغيرها.[6]

كذلك كما نجد بعضا من الخلفاء والسلاطين ممن كانوا قد استعانوا ببعض المنجمين، سعيا منهم للإطلاع على الغيب وأسراره، حيث ذُكرت في ذلك بعض النصوص تفيد بأن بعض المنجمين تنبئوا بتعرض العاصمة مراكش لخطر حصر المياه عنها، مما جعلهم يفكرون في إخفاء عيونها عن العدو، ومن هذه النصوص؛ النص الذي أورده حسن الوزان بقوله :" أن ماء نهر أغمات يصل إلى مراكش، يؤخذ بالقرب من أغمات، ويتابع جريانه في قنوات تحت الأرض، وقد أمر عدد من الملوك بالبحث لمعرفة من أين يأتي هذا الماء إلى مراكش، فدخل

بعض الأشخاص إلى القناة من النقطة التي يصل إليها الماء، وفي أيديهم مشاعل يستضيئون بها، ولما قطعوا بعض المسافة في القناة أحسوا بهبوب ريح شديدة أطفأت مشاعلهم وهلا من القوة ما خيل إليهم أنه لا عهد لهم بمثلها، وتعرضوا أكثر من مرة لخطر عدم إمكان الرجوع إلى الوراء، لأنه بالإضافة إلى ذلك كان مجرى الماء مسدودا بكتل حجرية ضخمة ينكسر عليها الماء ليمر من هذه الجهة وتلك، وأخيرا وجدوا حفرا عميقة جدا حتى إنهم اضطروا إلى ترك محاولتهم، ولم يجسر أحد بعد ذلك على استئناف هذا العمل "[7].

إذا نلاحظ عموما أن علم الفلك خاضت فيه بعض الفئات الشعبية لتلوذ إليه في فترات اليأس والشدة، عكس السلاطين، الذي اتخذوه لمعرفة الطالع والمستقبل.[8]

في حين أن البعض الآخر في مجتمع الغرب الإسلامي قد ذهب إلى قراءات أخرى بعيدا عن علم الأفلاك وعلم التنجيم، سعيا منهم لمحاولة معرفة ما سيكون من الخصب أو القحط وكل ما هو قادم، أو حتى رد تلك مخاطر الطبيعية قبل وقوعها، حيث يروي الداودي (ت402هـ) عن تلك القراءات الخاصة، ومنها قراءة كتف الشاة، والتي تتم من طرف أشخاص ملمين به بقوله:" إذا أرى تحت الغضروف الكبير وهو رأس الكتف البياض، وهو موضع المطر والبحر...سحابة سوداء فيكون المطر والهواء، أما إذا اعترضها صفرة فيكثر البرد، وإن أري ذلك الموضوع خدوشا فدليل على الجدب، فإن أظلم ظهر فيه نتوء مثل الأضراس... فذلك مطر وبركة وسنة طيبة".[9]

فقراءة الكتف كان شائعا في الغرب الإسلامي، وهناك حتى من استغل معرفته به ليرهب العامة، ويستعمل براعته فيه لتحقيق غايته وأهدافه، ومن أمثال ذلك مُحَمَّد ابن تومرت؛ الذي وظف موهبته في تفسير رموز عظم الكتف أيضا في بداية دعوته لتوسيع قاعدة أتباعه،[10] هذا فيما يخص الأشخاص والأفراد، أما القبائل التي برع أفرادها في قراءة الكتف نجد قبيلة الزناته[11].

ومما يلاحظ كذلك لدى مجتمع الغرب الإسلامي ارتباطه كثيرا بالطبيعة، ومحاولة التنبؤ بما ستؤول إليه، وهذا راجع بالأساس إلى تجاربهم وحصيلة خبراتهم وثمرة معرفتهم بأحوالها، حتى أضحت تلك التنبؤات تقال في شكل حكم وأمثال تم تداولها فيما بعد على نطاق واسع، وهي أمثال تقال عند رؤية دلالات معينة تأتي في الطبيعة، وتلك الدلالات تأتي باستقراءات وتوحي بحوادث ستقع، ومن جملة تلك الحكم الاستقرائية قول:" إذا رأيت الحمرة في الآفاق عند طلوع الشمس وفي غروبها سحاب كثير، فهو بشرة بالخصب"، فالحمرة التي تظهر مع شروق الشمس، وتجّمع السحاب حولها في المساء دليل عن الخصب والغيث، أما قولهم "إذا احمرت مع العشية اربط حمارك للمشية، وإذا احمرت مع الصباح أطلق حمارك يرتاح"[12]، فاحمرار الأفق في المساء لا يوحي بالمطر حسبهم ودليل ذلك قولهم: اربط حمارك للمشية، أي يستطيع الفلاح الخروج لحقله. أما احمرارها بالصباح فهو دليل على خطب ما وإيحاء له بعدم الخروج.

كما جاء لديهم أيضا في معرفة أحوال العام ومدى خصوبته، وكل ما يتعلق بالمطر والسيل والقحط والريح والوباء وغيرها، ما ذكره لنا ابن وحشية في كتابه الفلاحة النبطية عن استقراء الريح في شهر تشرين وما يكون بعدها إن وقعت، فيقول:" وقد أُمرنا أدمى أن نتفقد حال السنة في المطر في اليوم الذي نعيد فيه عيد القمر الكبير، وذلك في الرابع والعشرين من تشرين الثاني: فإن هب في أول هذا اليوم ريح شديدة باردة أو متوسطة ذلك على إسراع البرد والمطر جميعا، وتكون أمطار تلك النشوة شديدة كثيرة متواترة، وإن هبت الرياح وهاجت مع قيام الشمس، يقوم البرد متوسطا، وإن تحرك الهواء آخر ذلك اليوم، فإنه سيكون البرد والمطر متأخرين تلك السنة".[13]

وفي سياق آخر يتعلق بالشمس" أنها إذا طلعت مشرقة إلى ناحية عن جهتها في رأي العين، دل ذلك على برد شديد سيكون، وإذا طلع وهو أحمر شديد الحمرة، ثم كلما ارتفع اسود مكان ذلك اللون الأحمر دل ذلك على مطر شديد مع دفا، ويدوم المطر ربما أياما، وإذا قربت الشمس من الغرب فظهر في الناحية المتياسرة من غيبوبتها سحاب، دل ذلك على مطر

سيكون قريبا، وإن طلعت فظهر معها سواد سحاب أسود مظلم ثخين دل ذلك على مطر"[14].

هذا كل ما يتعلق بالطبيعة، وهناك استقراء آخر يتعلق بأفعال الحيوانات وحركتها، "فجيء عن العناكب أنها إذا تبادرت تخرج عن بيوتها المنسوجة، كان دالا على برد يكون، والمواشي كلها إذا أكثرت حركاتها كالمتخيلة، دل على أن البرد سيكون إلى نحو ثلاثة أيام، وفي البقر دليل قوي صحيح على كون البرد، وذلك إذا أكثرت العجيج ولحست أظلافها ومبادرتها إلى موضع مبيتها وهي تهمهم، فهذا أصح دليل على كون برد شديد سيحدث بعد يومين ونحو ذلك".[15]

أما الذئب فجاء أنه:" إذا لجأ إلى القرى يريد البيوت، وحمل على الكلاب كثيرا، فهو دليل على برد شديد سيكون قريبا، والفأر إذا صاح وسكسك ورقص، دل على هواء بارد سيكون بعد قليل، والكلاب إذا كثر نبشها وحفرها في الأرض دل على برد سيحدث." [16].

فالملاحظ؛ عما تقدم من استقراءات لمختلف عناصر الطبيعة، ومحاولة بعض العوام لمعرفتها ومعرفة ما ستؤول إليه، تبقى تلك المحاولات بعيدة عن القواعد العلمية والعقلية، التي في مضمونها الحقيقة والأسرار، وهو دليل واضح عن مدى ارتباط المجتمع ارتباطا وثيقا بالطبيعة وتأثيرها في ذهنيته وسلوكه، فيَعمَد إلى استقرائها كما سبق أن ذكرنا، كما نجد بعض المصادر قد انجرت وراء تلك الأوهام والقراءات الغير العلمية، ومقولة ابن وحشية تلخص ذلك الشأن الصعب بقوله:" فهذه الدلائل رسمناها، تعرف منها برأي العين ما قلنا، يشترك في إدراكها جميع الناس، وإنما رسمناها للأكرة والفلاحين، فإن مثل لا يخفى عليهم ولا على غيرهم ولا على أحد من الناس حتى أن النساء والصبيان ليدركونه، وأما المنجمون فإن لهم أدلة على تأخر البرد وتقدمه، وكذلك المطر، هي أكيدة من هذه وأصح، وإن كانت هذه صحيحة لا علة فيها"[17].

2.2 السحر والطقوس الاحتفالية لمواجهة الطبيعة:

إن الظروف الاقتصادية والاجتماعية ناهيك عن الظروف الطبيعية التي عرفتها بلاد الغرب الإسلامي على فترات مختلفة، وذلك المناخ السائد من الوضع السياسي المتدهور، أسهم في تعالي البدع والهرطقة وترسخت بعض العقائد الجديدة، بسبب غياب الحركات الإصلاحية في كثير من الأحيان، مما مكن من اتساع الثقافة الغيبية والفكر الخرافي على حساب العقل، ومن هنا نرى بوضوح قابلية المجتمع لظاهرة الطقوس والسحر،[18] التي أصبحت سلوكيات حتمية تظهر في كل أزمة، ويمكن القول أيضا؛ أن الإنسان بالغرب الإسلامي وضع بعض أماله على هذه الأوهام والخرافات وممارستها بدافع التخلص من الآلام والأوجاع التي فرضتها عليه المعيشة المزرية أو الأمراض المزمنة المتلاحقة، وحتى تلك الأوهام المتعلقة بالمظاهر الطبيعية المتقلبة والمهولة، فأرجع هذا الإنسان كل تفسيراته وما يلحقه من أمراض وخسائر إلى الجن والأرواح والعفاريت، وأصبح يفرق بين شريرها وخيّرها، فهذه الأخيرة استنجد بها بعدئذ لمواجهة الأولى، مما أدى هذا إلى ظهور أولئك القوم الذين أوهموا الناس بأن لهم القدرة على الالتجاء بهم، وراح بعض الأتباع فيما بعد يسلمون حياتهم إلى هؤلاء، وأصبحت البلاد تعج بالكثير منهم، وعرفوا بتسميات عديدة كالسحرة والمشعوذين والكهنة والدجالين[19]، وأضحى لهم تأثيرات كبيرة ووهمية حتى في الكون، وهذه الأفعال (السحر بمختلف طقوسه، الطلاسم...الخ) صارت من العلوم حسبهم، حيث يقول ابن خلدون عنها:" ... وهي علوم بكيفية استعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر، إما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية، والأول هو السحر والثاني هو الطلمسات"[20]، ومن جملة تلك التأثيرات التي خصت في تعريف ابن خلدون والتي تعزز ذلك المنطق هو ما أذاع به المنجمون من وشايات كثيرة ومرعبة حول نهاية العالم (582هـ/1186م)، حيث أجمع العلماء على النهاية والخراب بالعالم في شعبان من تلك السنة، ويحدث ذلك عند التقاء الكواكب الستة وتجتمع في الميزان بطوفان والريح، فذهب أهل

الإسلام والمسحيين على سواء، بحثا عن الخلاص، ونجد أن الأعاجم والروم قد هموا وشرعوا في حفر مغارات ونقلوا إليها الماء والزاد، ولما كانت تلك الليلة التي عينها المنجمون،كما يوم ريح عاد لم يحدث شيء وكانت هادئة وراكدة وحتى أن الشموع لم تنطفئ ولم تتحرك.[21]

فهذه الصورة توضح المكانة التي أصبحت لدى المنجمين والسحرة وقوة تأثيرهم، وكيف صار لهم دور فاعل في الحياة، كونهم أوهموا الناس بقدرتهم على إيجاد الحلول والخروج من المعضلات، فأنتج بذلك أشخاصا مقدسين، إلى درجة أنه ظهر هناك من يدعي أن له القدرة على حرمان الناس من القطر متى شاء :"سئل ابن لب عن رجل ادعى أن يرفع المطر على الخلق ثمانية أعوام ولا يرحمهم بقطرة".[22]

إن الكوارث الطبيعية المتواترة على الغرب الإسلامي، والتي كانت تهدد حياة ذلك المجتمع ومصادر عيشه، دفعت به إلى الالتجاء بمن له القدرة على حمايتهم من تلك الكوارث، وعمد ذلك المجتمع إلى تصديق منتحلي السحر وأصحاب الأعمال السحرية، وإلى إقامة بعض الممارسات والطقوس التي كانت معظمها تقام من أجل نزول المطر واستعطاف السماء، حيث رأى العوام أن التساقط مرتبط بالأرواح الشريرة، معتقدين في ذلك أن هذه الأرواح تسكن بعض الحيوانات، فقاموا:" بربط بعض فروع أشجار العشر والسلع في أذناب البقر ويصعدونها إلى الجبل مرتفع ويضرمون النار فيها زعما منهم أنهم يمطرون من وقتهم".[23]

ومما يوحي أن السحر أصبح علما مستقلا واضحا لديهم، هو وجود بعض ممن نبغوا فيه، على غرار مسلمة بن مُحَمَّد المجريطي إمام أهل الأندلس، الذي كان متمكنا من تعاليم السحريات، فلخص جميع تلك الكتب المرتبطة به وهذبها وجمع طرقها في كتاب سماه غاية الحكيم، [24] وقد أشار إليه ابن خلدون بقوله أنه:" إمام أهل الأندلس في تعاليم والسحريات فلخص جميع تلك الكتب وهذبها وجمع طرقها في كتابه الذي سماه غاية الحكيم، ولم يكتب أحد في هذا العلم بعده".[25]

ومن الأعمال السحرية والطقوس الغريبة أيضا، والتي جعلت العامة تقدس السحرة كثيرا، "نجد أهل غمارة الذين ظهر عندهم قوم يعرفون بالرقادة، يغشى على الرجل منهم يومين وثلاثة فلا يتحرك ولا يستيقظ، ولو بلغ به من أقصى مبلغ من العذاب حتى يقطع قطعا، فإذا استيقظ من غشيته كان كالسكران طول يومه لا يتجه لشيء ولا يخبر بشيء، فإذا كان بعد يوم، وصحا أتى بعجائب وغرائب مما يكون في ذلك العام من خصب أو جدب أو فتنة أو هدنة، وغير ذلك من الكوائن والأحداث، وهذا عندهم مستفيض مشهور".[26]

ومن أعاجيب بلاد غمارة كذلك؛ أن رجل من بني شداد كان معه عدل مملوءة برؤوس الحيوانات، أنيابها من البر والبحر قد نظمها في حبل واتخذها سبحة، فإن تسأله شيء من الحدثان، وما هو كائن فكان يعلق السبحة على شخص ثم يقلعها ويشمها قطعة قطعة، ثم طفق يخبره عن ما يسأل عنه من مرض أو موت أو ربح أو خسارة أو إقبال أو إدبار أو غير ذلك.[27]

ومن السحرة والكهنة الكثير؛ وظهورهم في الغالب مقترن بالأزمات الطبيعية كما ذكرنا سابقا، كونها الشغل الشاغل للعامة، ففي تلك الحقب يظهر أناس على أن بيدهم الخلاص والحل, ففي مرسى باديس مثلا كان هناك رجل قصير القامة مصفر اللون، يستنبط المياه على شكل عيون وآبار من المناطق الجافة التي ينعدم فيها الماء، كما كانت له القدرة على العلم بقرب المياه عن طريق استنشاق هواء ذلك الموضع.[28]

لقد اتفق أغلب المؤرخين أن السحر كان على نطاق واسع ببلاد الغرب الإسلامي، ففي بلاد غمارة دائما وبالتحديد جبال مجسكة التي عرفت رجلا كان من السحرة المهرة يعرف بأبي كمسية، وكان أهل موضعه يسمعون منه ولا يعصونه طرفة عين، فإن عصاه أحد منهم أو خالفه، حول كساه الذي يلتحف به، فيصيب ذلك الإنسان في ماله أو بدنه أو كليهما صائبة وعاهة، وإن كانوا جماعة أصابهم مثل ذلك، وكان يُخيّل إليهم كأن برقة تلوح من تحت كسائه".[29]

فالسحر إذا؛ كان مأثورا عندهم ومنتشرا خاصة في تلك القبائل البعيدة عن أعين السلطة، وأصبح مدرا للأموال على منتحليه ومن أبرز هؤلاء، ما يخبرنا ابن خلدون عنهم، وهم جماعة يعرفوا بالبعاجين، حيث التقى بهم ورأى منهم تلك الأعمال السحرية العجيبة، وهذا من أجل كسب المال حسبه, عن طريق استغلال تلك الفئات المهمشة والمحطمة جراء مختلف الأزمات والكوارث، مما حتم عليهم تصديق هؤلاء:" وبالمغرب صنف من هؤلاء المنتحلين لهذه الأعمال السحرية يعرفون بالبعاجين وهم الذين ذكرت أولا أنهم يشيرون إلى الكساء أو الجلد فيتخرق، ويشيرون إلى بطون الغنم بالبعج فتنبعج، ويسمى أحدهم لهذا العهد باسم البعاج، لكن أكثر ما ينتحل من السحر بعج الأنعام، يرهب بذلك أهلها ليعطوه من فضلها وهم مستترون بذلك في الغاية، خوفا على أنفسهم من الحكام، ولقيت من جماعة وشاهدت من أفعالهم هذه بذلك، وأخبروني أن لهم وجهة ورياضة خاصة بدعوات كفرية وإشراك الروحانيات والجن والكواكب، سطرت فيها صحيفة عندهم تسمى الخزيرية يتدارسونها".[30]

كما عرف الغرب الإسلامي نوع آخر يعرف بالحدثان، والحدثان عرفته الدولة المرابطية في البداية، وكانت تعرف بالملحمات، وهي تشمل القصائد والنثر كملحمة ابن مرانة، التي تنبأ بها باستيلاء المرابطين على سبتة وضمهم الأندلس، ومن القرائن التي تدل على شيوع السحر والكهانة في العصر المرابطي، أن الأمير إسحاق بن علي كان على دراية كبيرة بعلم الحدثان، حتى شاع خبره وجعله يختبر أحواله عن كثب، ليتحقق من صحة تنبؤاته بالغيب، وقبيل سقوط المرابطين تحدث الكهان عن تحول وشيك الوقوع[31].

فالسحر والطقوس والتي يرجع تاريخها إلى ما قبل الإسلام، والتي ظلت مستمرة إلى أزمنة متلاحقة، خاصة الفترة المدروسة في هذه الورقة البحثية، فالدارس يرى أن تلك السلوكيات جيء بها للتأثير في الطبيعة كما قلنا، وإبعاد لغضبها المتمثل في القحط والجدب والأعاصير وغيرها، وجلب منافعها من الغيث والمطر والبركة ومختلف المنافع التي يحتاجها الإنسان، ومن بين هذه السلوكيات ما أورده الطغنري وأبو الخير في دفع الآفات عن المحاصيل تحت عنوان " في

علاج الزرع وما يطرح الآفة عنه" أن الفلاح إن أخذ جلد ذئب وصنع منه غربالا، وثقب ثلاثون ثقبة عدد كل ثقبة بقدر ما تدخل السنة- كذا-فيه، وغربلت به الزراريع سلمها الله تعالى من الآفات،[32] ومن الأساليب والتي لا يقبلها العقل أيضا ما جاء في كتاب المقنع في الفلاحة أيضا أنه إذا:"غطيت المكيال الذي يكال به البذر بجلد الضبع حتى يعلق به ريحه، لم يكتل به بعد ذلك شيء من البذر إلا تنكبه الطير".[33]

وكذلك من سلوكيات الوقاية من الكوارث، ما جاء بطابع الخرافة والتفكير الأسطوري الوهمي، وهو ما حكاه أبو الخير:" أن الجارية العذراء التي آن نكاحها، إذا أخذت ديكا وهي حافية عريانة منشور شعرها ثم طافت به حول الزرع فإن ذلك الزرع يسلم من الآفات، وإن كان زوال فيه يهلك لوقته".[34]

ولدرء آفة الريح، والتي تضر ببعض المحاصيل ومنها الكروم، لأنه سهل التعرض للجوائح وسريع الفساد، خاصة أن كتب الفلاحة ذكرته أنه سريع التلف، فعمل الفلاحون على القيام ببعض الممارسات العلمية وغير العلمية لهذا الأمر، فجاء في هذا الصدد: "وأما الريح الباردة المهلكة، ومما يدفع بها ضررها، ونكاية البرد المفرط عن أصول الأشجار، أن تُزبل بجزء الناس مختلط بمثله من ذرق الحمام، ومثله من بعر الغنم، ومثله من ذرق الخفاش، ومثله عكر الزيت، ويعفن الجميع زمانا حتى يتودد ويجف، وتزبل به الكروم ... يرش بذلك الكروم وأغصانها بأفواه عدة رجال شبان وصبيان، وأحداث وكهول، أما من جاوز الستين سنة لا يفعل".[35]

فالملاحظ؛ أن تعرض هذا القطر إلى الكثير من الكوارث والآفات والجوائح، ألجأ قاطنيه إلى القيام بالسحر وبعض الطقوس السابق ذكرها، ظنا منهم أن ذلك يؤدي إلى رد تلك الآفات والكوارث التي تفسد عليهم كل شيء وتهدد مصادر عيشهم كإفساد ممتلكاتهم، والذهاب بمحاصيلهم.

3 سلوكيات مجتمع الغرب الإسلامي أثناء الكوارث الطبيعية:

1.3 السلوك العدواني:

ساهمت الكوارث المتلاحقة في الغرب الإسلامي في إظهار سلوكيات عدوانية كالغصب والتعدي والنهب وقطع الطرق وغيرها، حيث توالت في الكثير من المراحل خاصة الحرجة منها، واستهدفت هذه السلوكيات مصادر عيش الإنسان سواء المنقولة منها أو الثابتة، [36] ففي مجاعة قرطبة (526هـ/1132م) يصف لنا ابن القطان التعدّي والعنف الذي أحدثه ابن قنونة، وابن قنونة هذا، هو الذي ولاه مُحَمَّد بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين على قرطبة، وصاحب هذا التعدي من طرف الوالي المذكور، استفحال الوباء وكثرة الموت، وغلاء القمح الذي وصل إلى خمسة عشر دينار، وزاد الجراد من تفاقم الوضع بالأندلس بعدها بسنتين، أي سنة (527هـ/1133).[37]

وأشارت كذلك الكثير من النوازل إلى الغصب والنهب الحادث آنذاك، خاصة تلك المناطق الواقعة على مقربة من القبائل الهلالية، الباحثة عن الأكل والأراضي الخصبة، ففي سؤال مقدم ونازلة جاءت للونشريسي، تناولت مدى جواز شراء ما يغتصبه قطاع الطرق، فهي بذلك دلالة قطعية على امتهانهم اللصوصية والسرقة والتعدي، بل وتمادوا في ذلك إلى الإغارة على المدن، حتى أن السلطة الموحدية لم تتمكن من كبح جماحهم، إلى درجة هناك مَنْ مِنَ القوم غادر دياره هربا من بطشهم، [38] كما نجد من العلماء من دعا إلى قطيعة البدو والأعراب، فلم يذهب ابن عرفة وتلامذته على منع آلات الحرب فقط، إنما ذهبوا إلى أبعد من ذلك من خلال المقاطعة الاقتصادية، فالبرزلي مثلا أحد تلامذته فيما بعد، يقاطع شراء اللحم الآتي من البادية بقوله:" وقد فعلت ذلك بقيت أشهرا لا أشتري لحما من السوق"،[39] فتسلط بعض الأعراب شبهه أحد المؤرخين بالجائحة وقارنهم بها بقوله:" وكثيرا ما تعرض هذا الإنتاج إلى العديد من الجوائح البشرية، مثل اللصوص والأعراب والآفات الطبيعية مثل القحط والجدب"،[40] ويذكر لنا العبدري في رحلته، صعوبة الطريق الرابط بين تلمسان ورباط تازة،

ووصفها بالموحشة، لا تخلو من قطاع الطرق، ووصفهم بشرار الخلق، وأقلهم خُلقاً ومروءة، ويعتدون على النّاس بلا رحمة، وشمِل هذا الاعتداء الأموال والأنفس،[41] ومن الدلائل أيضا ما حكاه صاحب التشوف الذي تكلم عن حادثةٍ، توضح لنا تلك الصورة السوداوية والقاتمة للأوضاع السائدة والتعدي الحاصل آنذاك، من خلال ذكره للولي ابن الميلي، الذي تعرض للضرب من طرف حراس السوق ليلا لأنهم ظنوه سارقا.[42]

وتزامنت الكوارث الطبيعية في المغرب والأندلس كذلك، مع الفترة الحرجة من عمر الدولة المرابطية، وظهور الموحدين كعصبية فتية صاعدة في خضم هذا الصراع، فنشطت حركة الغصب والتعدي وتمركز اللصوص وقطاع الطرق في أبواب المدن والأسواق ومحاور القوافل التجارية، وكان من تداعياتها السلبية كثرة المحن على الساكنة،[43]وهؤلاء المعتدين كانوا يتخذون من الكهوف والمغارات ملجأً للتجمع، بغية الحصول على القوت والمال عن طريق الإغارة، [44]ويقوم هؤلاء (الصعاليك) بمداهمة المنازل خاصة منازل الأثرياء في الليل، حتّم على السلطة وضع خطة تسمى خطة طواف الليل، في حين أن بعض الفقهاء كابن لبابة، طالب بوجوب سجن مدى الحياة لكل من يحترف اللصوصية، وألحّ بضرورة ملاحقتهم واستعمال كل الوسائل القمعية ضدهم[45].

ويقول صاحب الأسطوغرافيا والأزمة في هذا الصدد أيضا:" أّن الأزمات الطبيعية ساهمت بشكل مباشر في إرباك الدول وعلى رأسها السلطة المرابطية، التي تجرعت خلال تلك المدة هزائم كثيرة من طرف الموحدين، قبيل سقوطها، ولم يكن أمام هذه المستجدات أن تفعل شيئا"، [46] أما الموحدون بعدها أيضا عانوا من توالي الأزمات، فتجد أحواز مكناسة تعرضت لكثير من عمليات الغصب والاعتداء بسبب الظروف الطبيعية ففي عام (617هـ/1220م) وهي أعوام عرفت بالجفاف، [47]والتي قال فيها صاحب المواقيت:" بأنها عرفت الجراد والقحط والغلاء الشديد".[48]

فالوضعيات الصعبة والأزمات المختلفة، أجبرت الخلفاء على اتخاذ تدابير، ومن هؤلاء الخلفاء الخليفة الناصر، الذي بعث بعيونه ورجاله لاستطلاع أخبار اللصوص وتعقُبِهم، فكان

كل من حامت حوله شُبهة يُقتَل من دون تردد، كما لم يَستثني الناصر عُماله مِن الذين تورطوا في أعمال الغصب والتعدي، سواء في الظروف العادية أو الاستثنائية، معتبرا تقصيرهم ونهبهم لمخازن المؤن، سببا لانتشار واندلاع الأزمة،[49] وخير دليل على ما وصفه ابن غازي، حول عمليات الغصب والتعدي تلك، خاصة من قبل جيوش الموحدين بقوله:" وتَمَلَّك الموحدون البلاد والأموال، وصار الناس عُمارا في أملاكهم، يُؤخذ منهم نصف الفواكه الصيفية والخريفية، وثلثا غلة الزيتون، وكانت العادة إذا بدأ صلاح الغلات، يباع حظ المخزن منها حارة فحارة، وكان المشترون لها قوما لا خَلاق لهم يقال لهم القشاشون[50]... لا يتجرأ أحدهم أن يقطف من مُلكِه حبةً واحدة...ففر النّاس عنها بسبب الجور وتركوها حتى تبورت...وكانت في المدينة بداوة."[51]

والعوامل الطبيعية مسّت الفلاح بالدرجة الأولى، وجعلته يتعرض للابتزاز والقهر، وهو ما يعبر عن العدوان الحاصل على الناس في ممتلكاتهم،[52] كما نجد إلى جانب العوامل الطبيعية أن بعض الدول تُضيّق على التجار وبالأخص في أوقات الكوارث والأزمات الطبيعية، من خلال وضع المكوس والجباية والضرائب، وتتدخل حتى لمزاحمة التجار، على سبيل المثال الدولة الموحدية، خاصة بعد ثراء تلك الفئة [53].

وحتمت الظروف أيضا الاستيلاء على الأراضي الأكثر خصبة، في المقابل كان السواد الأعظم يتحمل جحف الأرض والسماء وغلاء الأسعار،[54]كما أن هذه الظروف الطبيعية القاسية أنتجت لنا نظام اجتماعي قاسي وشديد القوة، وأبان على الهوة الكبيرة التي بين الغني والفقير، حيث أن السهول الواسعة شكلت جوهر تاريخي زراعي للمتوسطي، فهو الأكثر استقرارا وصعوبة وتكلفة من الناحية الإنسانية، [55] واعتبر هذا الحيز الجغرافي الأكثر رعبا لدى ساكنيه، مما أدى بهم إلى اتخاذ مخازن سرية، فاتخذ أهل فآس المطامير في بيوتهم، للطحن والطبخ، لئلا يسمع دوي الرحى فيقصدهم سفهاء مغراوة، وفيها أيضا اتخذوا غرفا لا مراقي لها،

حتى إذا غش النهار، صعد الرجل بأهله وعياله، ثم يرفع السلم معه، لكي لا يدخل عليه، وكان من هذا الشيء الكثير.[56]

2.3 السلوك الاستسلامي:

عرفت بلاد الغرب الإسلامي الكثير من السلوكيات الاستسلامية والانهزامية لدى أفرادها، ومن تلك السلوكيات نجد **الهجرات**، التي كانت على فترات معينة طوال تاريخها الطويل وبالأخص في فترتها الوسيطة؛ أما عن سبب حدوثها، فأحيانا كانت طوعية وأحيانا أخرى اضطرارية، هذه الأخيرة جاءت بفعل أحداث مفاجئة ومحتومة وأغلبها تعلقت بالكوارث الطبيعية، حيث هاجرت تلك الكتل البشرية من أجل الحفاظ على حياتها وبقائها.

فكان للجفاف الذي اجتاح بلاد الغرب الإسلامي سنة (534هـ/1139م) دور بارز، جراء ما أحدثه بنظام الدفاع لدى المرابطين، كما ساهم في الهجرة المستمرة، واللجوء عبر الجبال بالنسبة للموحدين الثائرين على السلطة المرابطية، بسبب الأزمات الطبيعية والسياسية، فقاموا بالهجرة واللجوء إلى المناطق الشمالية، التي تضررت بشكل أقل مع الاحتماء بالجبال في أوقات كثيرة،[57] وتفكير الخليفة عبد المؤمن الموحدي في حركته هاته يندرج ضمن البحث عن البدائل المستعجلة لمعضلة المجاعة، في وقت نضبت فيه مخازن الدولة وقلت فيها اليد العاملة النشيطة، فكانت تلك الهجرات المتسارعة والنشيطة بحثا عن الأماكن الخصبة بطبيعة الحال، وتفاديا لتسرب الجوع إلى الجيش الذي يعتبر أهم عنصر في إكمال الدعوة الموحدية،[58] وفي ظل هذه الاضطرابات المناخية الصعبة والفتن المستعرة بين المرابطين وطلائع الموحدين، أقدم الأمير المرابطي تاشفين بن علي في المقابل بمصاحبة جيشه والفرار إلى الأندلس، بعد فشله في مواجهة الموحدين، فكان بذلك نزوحا رسميا وشعبيا، وبحدة متواترة نحو الأندلس، بسبب الظروف المناخية والعسكرية،[59] ويذكر ابن عذارى عن تلك السنون وما انجر عليها من هجرة جماعية نحو الأندلس من أهل المغرب بقوله:" وفي هذه السنة انجلى أهل المغرب انجلاء عظيما إلى الأندلس"[60].

أما فيما يخص جفـــاف(576هـ/ 1180م)، فقد عصف بإفريقيه وحتم على الجيش الموحدي الانسحاب والرجوع إلى المغرب، حسبما جاء في كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير:" كانت بلاد افريقية مجدبة فتعذر على العسكر القوت وعلف الدواب فسار إلى المغرب مسرعا".[61]

وعمد بعض أهالي الحواضر إلى القيام باحتياطات، من خلال وضع إجراءات صارمة وتدابير قوية لمنع المهاجرين والفارين من دخول تلك الحواضر، وعلى سبيل المثال والحصر مدينة فاس التي عمل أهلها على غلق الأبواب في وجه **الجياع**، خوفا من النهب والسطو، وكان هذا الغلق في حدود سنة (620هـ/1223م)، فأغلق باب الفوارة (باب الزيتون ابن عطية) كما سدوا باب المقبرة في زمن مجاعة(627هـ/1229م).[62]

وعن مجاعة (630 هـ/1232م) التي فر أغلب سكان المغرب منها وبقي القليل ممن لم يستطع الهروب، وأشدها على الإطلاق ما حدث بمدينة مراكش التي لم يبقى أمام مستضعفيها سوى الفرار، وبتوالي الجفاف على بلاد المغرب، فر الناس يمينا وشمالا من بينهم أبي محلى وعائلته،[63] أما بعدها بسنتين أي (632هـ/1234م) زاد الوضع سوءا فقد فر من سبته شيخها المعروف البطريني ومات ومن معه بسبب الوباء و الغلاء .[64]

وبخصوص عام (633هـ/1236م) فإن المجاعات ألمت كثيرا بسكان مالقة وقرطبة، فهذه الأخيرة هجرها جل قاطنيها، حيث يذكر الحميري بقوله:" وبعد ذلك طحنتها النوائب واعتورتها المصائب، وتوالت عليها الشدائد والأحداث، فلم يبقى من أهلها إلا البشر اليسير على كبر اسمها وضخامة حالتها".[65]

وفي سنة (635/1237م) تكلمت المصادر عن وفاة الكثير من النفر وهروب العديد من الساكنة من قراهم ومدنهم، وعلى وجه الخصوص سكان المغرب، مما أحدث نزيف ديموغرافي رهيب حسب جل المؤرخين.[66]

3.3 السلوكات التضامنية :

نجد الكثير من شرائح المجتمع في الغرب الإسلامي، ساهمت في التضامن والتكافل الاجتماعي ومساعدة الناس في كثير من الأوقات، خاصة تلك التي اقترنت بالكوارث الطبيعية، محاولة منها تنفيس وتخفيف على المتضررين ومساعدتهم في مواجهة تلك الأحداث التي ألمت بهم، ومن هؤلاء المعاونين نجد رجال السلطة ولو على قلتهم، والفقهاء، وعلى نطاق واسع رجال التصوف.

وأبرز تلك المساعدات التي قام بها الحكام والسلاطين ورجال الدولة، والتي عرفت إشادات واسعة من المؤرخين في كتبهم، نجد ما قام به الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي(527 هـ-558هـ/1133م-1163م)، الذي قال عنه صاحب المن بالإمامة بأنه:" قد تصدق على الضعفاء والوافدين الغرباء، وجاد عليهم بجوده كالسحابة الوظفاء، وحاز بصدقته الأجر من الله، وعند الناس بجميل الثناء، فمن رجل ترى بيده ثلاثين دينارا صدقة وآخر كذلك، إلى جميع من كتب اسمه ضمن الصنف المسكين الملحوظ بعين الدين، لم يعتقد ذلك في زمانه[67]، ونجده كذلك قد أمر جميع نوابه بالمغرب بحفظ جميع ما يتحصل من الغلات وأن يترك في سنبله ويخزن في مواضعه، وأن يحفروا الآبار في الطرق ففعلوا، وجمعوا غلات حب ثلاث سنين ونقلوها إلى المنازل التي على الطريق الذي بين المغرب وإفريقية وهي طريق يمر بها الجيش، وطينوها فصارت كأنها تلال.[68]

أما الخليفة أبو يعقوب المنصور الموحدي (554هـ-595هـ/1160م-1199) فقد بني مارستان بمراكش، وأجرى عليه ثلاثين دينارا في كل يوم برسم الطعام، كما جلب إليه الأدوية وأقام فيه من الصيادلة لحمل الأشربة والأدهنة والأكحال، كما جعل فيه من الألبسة حسب كل طقس، وكان قبلة للغرباء وغيرهم، وقسم هذا المارستان إلي قسمين: قسم خاص للذكور وقسم خاص بالإناث ولكل قسم قاعات لمختلف الأمراض[69].

ولم يحيد الخليفة يوسف المستنصر عن أسلافه في مساعدة الناس؛ بحيث تدخل لاحتواء أزمة (616هـ-617هـ/1220م1221م) فأمر بفتح المخازن، وكان البيع يتم بالتفاضل، حيث أن الأقوياء يدفعون ثمنا والضعفاء ثمنا، وقام هذا الخليفة بفتح بيت المال، وترجع تلك الأعمال الخيرية التي فعلها الخليفة يوسف المستنصر؛ إلى نظام الضرائب الخراجي التي اعتمدته الدولة الموحدية، ووفر لها ذلك المخزون المقدم في أزمة تلك السنة[70].

لم يكن التضامن حكرا فقط على رجال السلطة في الأزمات، بل نجد أيضا رجال الدين المتصوفة، الذين وانطلاقا من البعد الديني وقوة النفس الإيمانية للبذل والإنفاق ومساعدة الغير بغية نيل الجزاء، بحيث يقول في هذا الشأن صاحب كتاب المغيبون في تاريخ تونس الاجتماعي الهادي التيمومي:" لم تكن التنظيمات الصوفية غائبة عن المشهد الجماعي، بل بالعكس عرفت حضورا مكثفا داخل السوق من خلال احتواء ردود فعل العوام زمن الأزمات والكوارث، فنشرت مرة الاستسلام للقدر، ومرة رمت الخبز لهؤلاء الجائعين،[71] لكن ذلك البذل اعتبرته الصوفية وأتباعهم بما يعرف بالكرامة:"... أعلم أن الكرامات الأولياء جائزة عقلا ومعلومة قطعا وإن المعجزات تخص الأنبياء ...ومن أعظم كرامات الله تيسير أسباب الخير و تعسير أسباب الشر ...".[72]

ومن هؤلاء المتصوفة الذين ساعدوا الناس أوقات الكوارث، نجد أبو العباس الهواري (ت540هـ)، فقد كان من أهل الإيثار والصدقات، وهَمّ مرة في شراء منزل؛ وهو بصدد دخول أحد المنازل المعروضة للبيع قيل له:" لا يوجد رجال به، إلا امرأة و بناتها اضطرت إلى بيعه بخمسمائة دينار للأكل والحاجة، فبعث بالمال لها وقال لها احتفظي بالمنزل".[73]

أما أبو حفص الصنهاجي وهو من أهل أزمور مات عام (561 هـ)، فلما أصاب الناس الجوع والمجاعة وغيرهما، وذلك عام (535هـ)، جمع خلق كبير وقام بمئونتهم والنفقة عليهم مما يصطاده من الحوت و غيره حتى أخصب الناس.[74]

ويحي بن مُحَمَّد التادلي الذي كان بفاس عام (571هـ). و هو عام المجاعة، فقد كان له قمح في غرفتين، فنذرهم للتصدق على الفقراء والمساكين، وقيل أنه لم يترك شيئا حتى لولده،[75] فأمر مُحَمَّد الحضري بتصديقه على المساكين والفقراء"،[76] كما نجد ابن الدلال من أهل محلة يتصرف في حوائج الفقراء والضعفاء ويسقيهم الماء ويحمل لهم الخبز،[77]وكذلك أبي زكريا يحي الزواوي (ت611هـ/1214م) الذي جمع المال من أهل بجاية وأعيانها ووزعه على المستضعفين بعد مجاعة أصابتهم.[78]

وهناك من المتصوفة من كان يحث على الصدقة كثيرا، خاصة زمن المحن والشدائد، فجيء لأحمد بن مُحَمَّد الصنهاجي الأندلسي الشهير بابن عريف(536هـ/1142م) قيل له يوما:" أما ترى ما للناس فيه من قحط ؟ فقال إنما حبس عنهم المطر ببخلهم فلو تصدقوا مطروا"، ثم قال:" لو تصدق الفلاحون بقدر ما أنفقوا مطروا"، فقيل له: "لا يصدق الناس بذلك، فقال للقائل، افعل ذلك تمطر فقال الراوي نويت ذلك متى حصلت الغلة، فقال لي إن الله تعالى لا يعامل بالدين، قال ففعلت ثم خرجت لبحيرتي، في يوم قر، قد أشرف جميع غرسي على الهلاك فإذا سحابة أمطرت البحيرة حتى رويت".[79]

4 خاتمة:

في الأخير يمكن القول أن ساكنة الغرب الإسلامي تعرضت خلال العصر الوسيط إلى العديد من الكوارث والأزمات، التي كانت بشكل دوري ومتواتر حسب قراءتنا للمصادر التاريخية، بحيث أدى وقوعها إلى طفح الكثير من المشاكل، وعانى المجتمع من جرائها بشكل عام والأفراد بشكل خاص.

ومن نتائج تلك الأزمات والكوارث تأثيراتها على ذهنية المجتمع، الذي أصبح بعض عناصره يمارسون السحر والتنجيم ويقدسون حتى منتحلوها، إضافة إلى تأثيرات أخرى على مستوى الأفراد ويتجلى ذلك في العنف على الأشخاص وممتلكاتهم ونهب خيراتهم وأموالهم وغيرها مما حتم على هؤلاء الهجرة، فهجروا أوطانهم وقبائلهم للبحث عن القوت والأمن.

ولكن بالرغم من تلك الكوارث الطبيعية وما انجرت عنها من مشاكل، إلا أنها بينت لنا عن روح التضامن والتكافل في الكثير من الأحيان بين أفراد المجتمع الغرب الإسلامي، وكان ذلك التكافل سمة كل شرائحه ومن أبرزهم الحكام والسلاطين والمتصوفة ،الذين عملوا على تخفيف الأوجاع التي كان فيها المجتمع من خلال مساهمتهم المادية والمعنوية.

5 .الهوامش:

[1] وقال التيجاني واصفا شدة العواصف المناخية التي اعترضت رحلته من قابس إلى مغرب الأقصى بقوله :" فاشتد ريح عاصف حتى يأسنا الحياة بابتعاد واستعذنا الله من قتلة عاد ، وقصف الريح في ذلك اليوم من البساتين التي تكنفنا نحو عشرين نخلة فانجحفت في الأرض ولم يتأذ أحد من الناس" انظر: أبو مُحَّد عبد الله بن مُحَّد بن أحمد التيجاني: رحلة التيجاني، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، د.ط، 1981، ص173.

[2] شهاب الدين القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الانشا، شرحه وعلق عليه: نبيل خالد الخطيب، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط ،1987،ج5، ص147.

[3] الأنواء وهي 28 نجما معروفة المطالع في أزمنة السنة كلها، يسقط في كل ثلاثة عشر ليلة منها نجم في المغرب مع طلوع الفجر، ويطلع آخر يقابله في المشرق من ساعة،. عمر سليمان الأشقر: عالم السحر والشعوذة، دار النفائس، عمان الأردن، ط3، 1997، ص117.

[4] مُحَّد ابن ابراهيم ابن الأكفاني: إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد في أنواع العلوم، تحقيق: عبد المنعم مُحَّد عمر، دار الفكر العربي للطبع والنشر، القاهرة مصر، د.ط، د.ت ص178.

[5] مُحَّد منوني: العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ط2، 1977، ص109.

[6] المرجع نفسه، ص109.

[7] الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية:مُحَّد حجي ومُحَّد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د.ط ،1983،ج1، ص136.

[8] الهادي التيمومي: المغيبون في تاريخ تونس الاجتماعي، شركة أوربيس للطباعة، تونس،د.ط، 1999، ص59.

[9] عبد الهادي البياض: المناخ والمجتمع بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، مكتبة فهد الوطنية للنشر، السعودية، د.ط، 1436هـ، ص 7.

[10] إبراهيم القادري بوتشيش: المغرب والأندلس في عصر المرابطين المجتمع الذهنيات الأولياء، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1 .1993 ،ص119.

[11] الشريف الإدريسي: وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، تصحيح ونشر: هنري بيريس، مكتبة معهد الدروس العليا الإسلامية، الجزائر،1957 د.ط، ص6.

[12] أبي يحي عبيد الله بن أحمد الزجالي: أمثال العوام في الأندلس، تحقيق: محمد بن شريفة، مطبعة محمد الخامس، فاس، 1975،د.ط، ج1،ص159.

[13] أبي بكر أحمد ابن وحشية: الفلاحة النبطية، تحقيق: توفيق فهد، ليماسول قبرص، ط1، 1993، ص214.

[14] نفسه، ص211-212.

[15] نفسه، ص212-213.

[16] نفسه، ص213.

[17] نفسه، ص213

[18] إبراهيم القادري بوتشيش: المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2014، ص43.

[19] بوزياني دراجي: ملامح تاريخية للمجتمعات المغربية، مؤسسة بوزياني للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، د.ت، ص ص229-230.

[20] عبد الرحمان ابن خلدون: مقدمة، تحقيق: محمد الشامي، دار الكتاب الحديث، د.ط، 2016، الجزائر،ص390.

[21] لسان الدين ابن خطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، مكتبة الخانجي،ج4، القاهرة، ط1، 1977، ص405.

[22] سعيد بنحمادة: الماء و الإنسان في الأندلس خلال القرنين 7و8هـ/13و14م إسهام في دراسة المجال والمجتمع والذهنيات، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2007، ص186.

[23] محمد بن عبد العزيز بنعبد الله: الماء في الفكر الإسلامي والتراث العربي،الناشر:وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،المغرب، د.ط، 1996، ج1، ص313.

[24] الأشقر ،مرجع سابق، ص51.

[25] ابن خلدون ،مصدر سابق، ص390.

[26] مؤلف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار،نشر وتعليق: عبد الحميد سعد زغلول، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب،د.ط، 1985، ص 192.

[27] أبي عبيد البكري، المغرب في ذكر لأخبار إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ط، د.ت، ص101.

[28] إبراهيم القادري بوتشيش، الإسلام السري في المغرب العربي، سينا للنشر، ط1 ،القاهرة، 1995، ص41.

[29] مؤلف مجهول،مصدر سابق، 192.

[30] عبد الرحمان ابن خلدون، مصدر سابق ،ص394

[31] إبراهيم القادري بوتشيش: المغرب والأندلس في عصر المرابطين المجتمع–الذهنيات–الأولياء، ص 166–119.

[32] عبد الهادي بياض: الكوارث الطبيعية وأثرها على الإنسان، دار الطليعة للنشر والتوزيع،بيروت لبنان، ط1، 2008، ص147.

[33] نفسه، ص147.

[34] نفسه، ص148.

[35] أبي زكريا ابن العوام الإشبيلي: الفلاحة الأندلسية، تحقيق: أنور أبو سوليم وآخرون، ، منشورات مجمع اللغة العربية، الأردن،د.ط، 2012، ج3،ص369.

[36] البياض: الكوارث الطبيعية وأثرها على الإنسان، ص 87.

[37] أبي مُحَمَّد حسن ابن قطان: نظام الجمان لترتيب من أخبار زمان، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1990. ص ص226–230.

[38] نوال بزة وعلي عشي، الفقر والجريمة في المغرب الأوسط، مجلة الإحياء، العدد22، 2022، ص 962.

[39] مُحَمَّد حسن: المدينة والبادية بافريقية في العهد الحفصي، شركة أوربيس للطباعة، قصر سعيد، د.ط، 1999، ج1،ص 521.

[40] حافظ حادة، الحيلة الاقتصادية في العهد الحفصي من خلال نوازل البرزلي والونشريسي وكتب الحسبة، مجلة مشكاة، العدد7، 2009، ص505.

[41] بزة نوال وعشي علي، مرجع سابق، ص 962.

[42] أبي يعقوب بن يحيي التادلي: التشوف إلى رجال التصوف و أخبار أبي العباس السبتي، تحقيق: أحمد التوفيق،ط2، منشورات كلية الأدب و العلوم الإنسانية، الرباط، د.ط، 1997، ص370.

[43] عبد الهادي البياض: الكوارث الطبيعية وأثرها على الإنسان،ص 79-80.

[44] إبراهيم قادري بوتشيش: أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي من منتصف القرن الثالث هجري حتى ظهور الخلافة (250هـ-316هـ)، منشورات عكاظ، الرباط، د.ط، د.ت، ص 262.

[45] نفسه،ص264.

[46] الجمعية المغربية للبحث التاريخي: الأسطوغرافيا والأزمة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، د.ط، د.ت، ص158.

[47] إبراهيم قادري بوتشيش، إسهامات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لمدينة مكناس خلال العصر الوسيط، منشورات عمادة الجامعة، المغرب، د.ط، 1997، ص 44.

[48] مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الله: مجموعة اليواقيت العصرية، مطبعة مصطفى ألبابي الحلبي،مصر ، د.ط، 1349هـ، ص29.

[49] عبد الهادي البياض: الكوارث الطبيعية وأثرها على الإنسان، ص 83

[50] "...وعرف المغرب بالخصوص، قوما عرفوا بالقشاشون الذين كانوا يستطيلون على حظوظ الرعية، ويشترون منهم بثمن بخص ويبيعون للمخزن غاليا، مما حكم على الناس بجهد عظيم ومحنة شديدة، والقشاشين هم بائعو الفواكه الجافة في القرون المتأخرة، لكن حسب مدلولهم في النص فهم أصحاب الاغتصاب والنصب، وهم ممثلي عن المخزن المكلفين بجمع الغلة، وقد تجلى ذلك في عمليات البيع والشراء من خلال شراء حظ المخزن من الزراع وسلب نصيب هؤلاء بثمن رخيص، مما أدى إلى افتقارهم"،انظر: إبراهيم قادري بوتشيش: إسهامات في التاريخ الاقتصادي-الاجتماعي لمدينة مكناس في العصر الوسيط، ص94.

[51] أبي عبد الله ابن غازي المكناسي: الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، المطبعة الملكية، الرباط، د.ط، 1999، ص27-28.

[52] إبراهيم القادري بوتشيش: إسهامات في التاريخ الاقتصادي لمدينة مكناس خلال العصر الوسيط، ص 48.

[53] نفسه، ص84.

[54] إبراهيم القادري بوتشيش: أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس، ص 262.

[55] برودیل فرنان: المتوسط والعالم المتوسطي، تعريب: مروان أبي سمرا،دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع،بيروت لينان، د.ط، 1993، ص 30.

[56] أحمد بن خالد الناصري: الإستقصا لأخبار المغرب الأقصى،تح: جعفر الناصري ومُحَمَّد الناصري،دار الكتاب، الدار البيضاء، د.ط،1954 ،ص 68.

[57]الجمعية المغربية للبحث التاريخي: مرجع سابق، ص 159.

[58]عبد الهادي بياض، الكوارث الطبيعية وأثرها على الإنسان، ص118

[59] نفسه، ص118.

[60] ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار المغرب والأندلس، تح: إحسان عباس، ج 4، دار الثقافة، بيروت، ط2، 1980، ص98.

[61] عزدين أبو الحسن ابن الأثير: الكامل في التاريخ، بيت الأفكار الدولية،الأردن، د.ط، د.ت، ج9، ص450.

[62] عبد الهادي البياض، الكوارث الطبيعية وأثرها على الإنسان، ص119.

[63] نسيبة غرابي: الأزمات الطبيعية وتأثيرها على بنية الاقتصادية والديمغرافي في بلاد المغرب خلال العصر الوسيط، مذكرة لنيل الماستر، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، جامعة المسيلة، 2016، ص ص45 – 46.

[64] نفسه، ص ص45 –46

[65] عبد الله بن مُحَمَّد الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تح:إحسان عباس ومُحَمَّد بن عبد المنعم الحميري، مكتبة لبنان، ط2، 1984، ص458.

[66] نسيبة غرابي، مرجع سابق، ص ص45 –46.

[67] عبد الملك ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، تحقيق: عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1987، ص421.

[68] أحمد بن خالد الناصري، مصدر سابق، ص49.

[69] مُحَمَّد منوني: العلوم والآداب على عهد الموحدين، دار المغرب للتأليف والنشر، الرباط، ط2،1977، ص129-132.

[70] مُحَمَّد المغراوي: الموحدون وأزمات المجتمع،جذور للنشر، الرباط، 2006،،ص34 .

[71] الهادي التيمومي، مرجع سابق، ص 231.

[72] التادلي، مصدر سابق ، ص54.

[73] نفسه، ص153.

[74] نفسه، ص 183.

[75] العباس بن إبراهيم السملالي: الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، د.ت، ج10، ص204.

[76] التادلي، مصدر سابق، ص 246.

[77] نفسه، ص341.

[78] نفسه، ص 429.

[79] أحمد بابا التنبكتي: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، مخطوطات الأزهر الشريف بمصر،نسخة رقم 30962، ورقة رقم75.

6 قائمة المصادر والمراجع

أ المصادر المخطوطة:

-أحمد بابا التنبكتي: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، مخطوطات الأزهر الشريف بمصر،نسخة رقم 30962.

ب المصادر:

-أبو مُحَمَّد عبد الله بن مُحَمَّد بن أحمد التيجاني: رحلة التيجاني، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، د.ط، 1981.

- ابن خطيب لسان الدين ، الإحاطة في أخبار غرناطة، مكتبة الخانجي،ج4، القاهرة، ط1، 1977.

-ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار المغرب والأندلس، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط2، 1980.

-أبي بكر أحمد ابن وحشية: الفلاحة النبطية، تحقيق: توفيق فهد، ليماسول قبرص، ط1، 1993.

-أبي زكريا ابن العوام الاشبيلي: الفلاحة الأندلسية، تحقيق: أنور أبو سوليم وآخرون، ، منشورات مجمع اللغة العربية، الأردن،د.ط، 2012،ج3.

-أبي عبد الله ابن غازي المكناسي: الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، المطبعة الملكية، الرباط، د.ط، 1999.

-أبي عبيد البكري، المغرب في ذكر لأخبار إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ط، د.ت.

-أبي مُحَّد حسن ابن قطان: نظام الجمان لترتيب من أخبار زمان، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1990.

-أبي يحي عبيد الله بن أحمد الزجالي: أمثال العوام في الأندلس، تحقيق: مُحَّد بن شريفة، مطبعة مُحَّد الخامس، فاس، 1975،د.ط، ج1.

-أبي يعقوب بن يحيي التادلي: التشوف إلى رجال التصوف و أخبار أبي العباس السبتي، تحقيق: أحمد التوفيق،ط2، منشورات كلية الأدب و العلوم الإنسانية، الرباط، د.ط، 1997.

-أحمد بن خالد الناصري: الإستقصا لأخبار المغرب الأقصى،تح: جعفر الناصري ومُحَّد الناصري،دار الكتاب، الدار البيضاء، د.ط،1954.

-الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية:مُحَّد حجي ومُحَّد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د.ط ،1983،ج1.

-الشريف الادريسي: وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، تصحيح ونشر: هنري بيريس، مكتبة معهد الدروس العليا الإسلامية، الجزائر، د.ط،1957 .

-شهاب الدين القلقشندى: صبح الأعشى في صناعة الانشا، شرحه وعلق عليه: نبيل خالد الخطيب، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط ،1987،ج5.

-العباس بن إبراهيم السملالي: الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، د.ت، ج10.

-عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: مُحَمَّد الشامي، دار الكتاب الحديث، د.ط، 2016، الجزائر.

-عبد الله بن مُحَمَّد الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تح:إحسان عباس ومُحَمَّد بن عبد المنعم الحميري، مكتبة لبنان، ط2، 1984.

-عبد الملك ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، تحقيق: عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1987.

-عزالدين أبو الحسن ابن الأثير: الكامل في التاريخ، بيت الأفكار الدولية،الأردن، د.ط، د.ت، ج9.

-مُحَمَّد ابن إبراهيم ابن الأكفاني: إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد في أنواع العلوم، تحقيق: عبد المنعم مُحَمَّد عمر، دار الفكر العربي للطبع والنشر، القاهرة مصر، د.ط، د.ت.

-مؤلف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار،نشر وتعليق: عبد الحميد سعد زغلول، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب،د.ط، 1985.

ج المراجع:

-إبراهيم القادري بوتشيش: المغرب والأندلس في عصر المرابطين المجتمع الذهنيات الأولياء، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1،1993.

-إبراهيم قادري بوتشيش: أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي من منتصف القرن الثالث هجري حتى ظهور الخلافة (250هـ-316هـ)، منشورات عكاظ، الرباط، د.ط، د.ت.

-إبراهيم القادري بوتشيش: المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2014.

-إبراهيم القادري بوتشيش، الإسلام السري في المغرب العربي، سينا للنشر، ط1 ،القاهرة، 1995.

-إبراهيم قادري بوتشيش، إسهامات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لمدينة مكناس خلال العصر الوسيط، منشورات عمادة الجامعة، المغرب، د.ط، 1997.

-برودیل فرنان: المتوسط والعالم المتوسطي، تعريب: مروان أبي سمرا،دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع،بيروت لبنان، د.ط، 1993.

-بوزياني دراجي: ملامح تاريخية للمجتمعات المغربية، مؤسسة بوزياني للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، د.ت.

-الجمعية المغربية للبحث التاريخي: الأسطوغرافيا والأزمة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، د.ط، د.ت.

-سعيد بنحمادة: الماء و الإنسان في الأندلس خلال القرنين 7و8هـ/13و14م إسهام في دراسة المجال والمجتمع والذهنيات، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2007.

-عبد الهادي البياض: المناخ والمجتمع بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، مكتبة فهد الوطنية للنشر، السعودية، د.ط، 1436هـ.

-عبد الهادي بياض: الكوارث الطبيعية وأثرها على الإنسان، دار الطليعة للنشر والتوزيع،بيروت لبنان، ط1.

-عمر سليمان الأشقر: عالم السحر والشعوذة، دار النفائس، عمان الأردن، ط3، 1997.

-مُحَمَّد المغراوي: الموحدون وأزمات المجتمع،جذور للنشر، الرباط، 2006.

-مُحَمَّد بن عبد العزيز بنعبد الله: الماء في الفكر الإسلامي والتراث العربي،الناشر:وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،المغرب، د.ط، 1996، ج1.

-مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الله: مجموعة اليواقيت العصرية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي،مصر ، د.ط، 1349هـ.

-مُحَمَّد حسن: المدينة والبادية بافريقية في العهد الحفصي، شركة أوربيس للطباعة، قصر سعيد، د.ط، 1999، ج1.

-مُحَمَّد منوني: العلوم والآداب على عهد الموحدين، دار المغرب للتأليف والنشر، الرباط، ط2،1977.

-مُحَّد منوني: العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ط2، 1977.

-نسيبة غرابي: الأزمات الطبيعية وتأثيرها على بنية الاقتصادية والديمغرافية في بلاد المغرب خلال العصر الوسيط، مذكرة لنيل الماستر، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، جامعة المسيلة، 2016.

-الهادي التيمومي: المغيبون في تاريخ تونس، شركة أوربيس للطباعة، تونس،د.ط، 1999.

د المقالات:

-حافظ حادة، الحيلة الاقتصادية في العهد الحفصي من خلال نوازل البرزلي والونشريسي وكتب الحسبة، مجلة مشكاة، العدد7، 2009.

-نوال بزة وعلي عشي، الفقر والجريمة في المغرب الأوسط، مجلة الإحياء، العدد22، 2022.